

أشغل عن هذا بشيءٍ غيره من العلم لا نعت به ويزول عني وصف الشطرنج وعلمت أن الفقه وسائر الأدب ولو اشغلت به عمري كله لم يخصني منه وصف أنعت به فعدلت إلى أبي مروان عبد الملك بن زهر واشغلت عليه بصناعة الطب وكنت أجلس عنده وأكتب لمن جاء مستوصفاً من المرضى الرقاق واشتهرت بعد ذلك بالطب وزال عني ما كنت أكره الوصف به وهذا هو السبب والله أعلم في إخفاء كثير من أهل الوقار والعلم أهم على جانب من علم الموسيقى والضرب على العود وغيره من أنواع المذبذب ولولا التقيّة لانتهى إلينا أسماء كثير ممن تبلغنا عنهم سوى أخبار العلوم المعارفة على أن الشرف كله اعتباري ولا مانع من الغناء والتلحين إذا لم يتبعهما التلطيخ بحمأة السفاهة والرذيلة.

أما الملوك والأمراء الذين عنوا بالموسيقى قديماً فأكثر من أن يحصوا منهم يزيد ابن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادي وإبراهيم بن عيسى بن جعفر المنصور ومحمد بن جعفر المقتدر والمتوكل والمهدي والمزيد وطلحة الموفق والطائع والمقتدر وابن المعتز وغيرهم من الملوك المتأخرين والله أعلم.

قوى النساء

كتب باولو لومبروز العالم الإيطالي مقالة في المجلة الباريزية قال فيها ما تعريه: حكم الناس منذ قرون بأن الرجل من الجنس القوي والمرأة من الجنس الضعيف. فجميع مظاهر النشاط والمتانة والقوة الطبيعية من امتيازات الرجل. عضلاته كالفولاذ ويحمل السيف ويحارب ويتسلق الجبال الخطرة ويتحشم البحار وهي في أشد أنوائها ويرى الموت وجهاً إلى وجه.

أما المرأة اللطيفة المزاج فإنها ترى أن قسم ساق زنبقة يعد منها قوة فهي التي يغمى عليها وهي جالسة على الكرسي وتصرخ مذعورة إذا رأت عنكبوتاً أو فأرة. فلذا يسأل السائل من أين تبعث قوتها أي جوهر شجاعتها ومقاومتها ورباطة جأشها على أن المرأة في الغالب تظهر بمظهر الغيرة والإخلاص وسلامة العقل وإنكار النفس والمفاداة وكل ما يعرف به الإنسان الخلق للعادة.

القوة والمتانة الطبيعية هما أساس القوة الأدبية وشرط لازم لهما وقد أبان التاريخ والإحصاء والبحث بأن المرأة ليست دون الرجل في المقاومة الطبيعية للأمراض والأوجاع والأنتعاب فإننا نرى النساء المتوحشات البربريات يقمن بأشق الأعمال فيحرثن الأرض ويطحن الحب ويحملن الأثقال بينهن مرضعات أو حاملات.

ومن الغريب إننا نرى الضعف في النساء والقوة في الرجال عند بعض الشعوب المتوحشة على صورة معكوسة فنرى المرأة عندهم تضع ولداً فلا تلبث أن تهض وتتولى في الحال أعمالها على حين يبقى زوجها في الفراش كالنفساء وهذا مما دلّ على مضائها الغريب.

وانا لرى النساء في بلاد الهرسك يقرن بالسكة بدل البقر كما نراهن في بلاد الألب ينقلن أحمال العلف عوضاً عن البغال.

وليس من رياضة مهما صعبت واقتضت صاحبها من الجرأة والثبات والشجاعة إلا قامت به المرأة بنشاط وبرزت في مضاميره أي تيريز. فنراها تركب الخيل وتسبح وتلعب بالسيف وتركب الدراجة وترتاض في الجبال وكل ذلك مما يقتضي له عدا أعصاب من حديد ومقاومة فائقة حضور ذهن وحذر واحتقار للموت أي ما لا يمكن القيام به إلا إذا اتفقت القوة الطبيعية مع القوة الأدبية.

وهناك أحوال كثيرة لا ندعوها رياضة لما يقتضي لها من النشاط والشجاعة والثبات في المرأة ونعني بذلك اكتشاف البلاد الجليدة لما فيها من المخاطر وما ينبغي لدخولها من الجراءة. ومن الناس من يظن أن مجد الاكتشاف لا يحرزه إلا الرجال على حين هناك عدد كبير من النساء المكتشفات والسائحات اللاتي لم يهين الأخطار واستهن بكل ما ينبغي للنجاح.

فقد رأينا العقيلة كودرو طافت مع زوجها أقطار غويانا الموبوءة واجتازت نهر البرازيل الماهول بالهنود ومات زوجها سنة ١٨٩٩ فلم تكن أقل منه مثابرة على السياحة وحدها. وليفنكستون وهو أعظم سانح إفريقي في عصرنا كانت ترافقه زوجته في أكثر رحلاته وهي التي أنقذته من الهلاك في شوبانكا وقضت كالأبطال وهي لا تريد أن تغادره في الرامبين. وقد اكتشف بكر سنة ١٨٦٤ نهرت ألبرت نيانزا وكانت زوجته اكبر مساعدة له بجرائها ونشاطها. وصحبت جوزفين بري زوجها سنة ١٩٠٢ إلى القطب الشمالي وهي على قلة ما لقيه من الرفاهية في تلك الرحلة استطاعت أن تربي لها ولداً. ورافى كنود رامومسين أخواته في رحلته إلى غروانلاندا. وطاف بوتانين الروسي وأجفالفى المجري مع زوجتيهما في آسيا الوسطى وكانت زوجة الثاني باريزية الأصل والرثية فكتب لها السيد أن تعود إلى أوروبا فوضعت لها كتاباً بديعاً في رحلتها أما زوجة الأول فبقيت إلى الآخر وقضت وهي لا تخاف دركاً ولا تخشى.

وان ما حدث لرينهارد زوجة السائح البشر كان من المدهشات حقيقة فقد كانت ترافق زوجها مع ولد لها في بلاد التبت وكانت سياحتها خطيرة وشاقة من وراء الغاية. ولقد داهمها لصوص من أهل التبت بالقرب من لاهاسا فهرب جميع من كانوا معها. وبعد أن بقي البشر كامناً مع زوجته في السياج خرج قاصداً أحد المساكن القريبة يطلب معونة من فيه وظلت زوجته في انتظاره فلما نفذ صبرها عرفت أن

الصوص قتلوه وعندئذ قامت تسير وحدها عائدة من حيث أتت مع زوجها وهي تتوقع الموت في كل دقيقة وبعد أربعة أسابيع فضتها ماشية في صعبات وآلام لا تصدق بلغت مدينة قاتسين لو ناجية هي وطفلها.

هذا ولا تشارك المرأة الرجل في مخاطر الرحلات والوحدة والحميات المؤذية والجليد والحر والمخاوف بل إن لها في الدفاع عن حياض البلاد بدأً طويلة يدعوها إلى ذلك حبها لوطنها أو لأولادها. فقد عرفت جان دارك المخاربة الفرنسية المشهورة بأيامها الغر المحجلة كما عرفت كاترين سفورزا في القرن الخامس عشر في إيطاليا فإنما بعد أن رأت زوجها يذبح تحصنت في قلعة فورلي وقاومت حصار قيصر بورجيا ثلاثة أسابيع وبقيت في مقدمة رجالها ليل نهار راجلة وراكبة وهي لم تترك سلاحها ولما أعيتها الحمل أرادت أن تقتل نفسها بنسف الحصن ولكنها بقيت حية مع زمرة من أصحابها وعادت تقاتل بين أشلاء القتلى إلى أن أسرت وعندها صاحت إني أسلم نفسي لملك فرنسا.

والتاريخ لا ينسى نساء مدينة سين وقد ضيق الحصار عليها الملك شارل كان فهين يتألفن ثلاثة توابع مؤلفة من بنات جنسهن خاصة لا يقل عددهن عن ثلاثة آلاف فليست قائدة التابور الأول لباساً بنفجياً وقائدة الثاني لباساً حرير أحمر والثالثة اكتت بالبياض. ومثل هذا قامت حنة هاشيت يصحبها نساء يوفي للدفاع عن مدينتهن وجاكلين روينس عرضت حياتها للخطر لتجاً في قاربها الذخائر اللازمة سان أومار خلال حرب انتقال الملك الإسباني.

ولكم من امرأة اشتهرت بإقدامها وشجاعتها بحيث يكاد ينكر عليها المرء ما يصدر عنها وهي التي عرفت بالضعف ووصفت بكثرة التأثر وكان الذي يحملهن فيالغالب على تقحم المهالك تعصب ديني أو كرامة للظلم أو حب للحرية يقيمنه ويقعدهن. وعلى هذا رأينا شارلوت كورداي فأدت بنفسها وقتلت مارات المظالم وحدها ولما

صئلت عما أتت أجابت: إن حب الحرية علمني أسباب الوصول إلى الظالم لأقتله.
وقالت: ما أتعب بلاد كفرنسا يعجب فيها من امرأة تفادي بحياتها دفاعاً عن بلادها.
ومن النساء صاحبات القوة الأدبية يخرج أولئك الروسيات بالمئات متخليات عن
ثروتهن وراحتهن ورفاهيتهن في قصورهن الآمنة الواعدة منذرات على أنفسهن الدعوة
إلى الثورة. يعرف الناس اسم صوفيا بوروفيسكايا التي مشت إلى المشنقة هادئة دون
أن يبدو عليها الضعف ساعة. ويذكرون فيراساسولتش التي قتلت القائد ترييوف
جلاد العدميين في روسيا وبرأها محكمة الخلفين فأقرت بأنها كانت تؤثر أن يحكم عليها
لأنها تكون إذ ذاك آمنة من أنها عملت ما تقدر عليه للدفاع عن حقيقتها. وقضت
الفتاة فيرافير البديعة الطلعة المحية إلى النفوس ست سنين وهي روح جميع المكائد التي
حدثت في روسيا فتجتاز البلاد من أقصاها إلى أقصاها وهي تحمل قذائف في مشددا
وتحتج متوارية عن أنظار رجال الشرطة ولإنفاذ أوراق ومستندات محظورة. وقد
سجت هذه الفتاة الفتانة التي خلقت للحركة والاضطراب والشجاعة والثورة
عشرين سنة في سجن شلوسبورج وخرجت منه بحماستها الأولى ومراميها التي طالما
سعت لها سعيها.

ويرى العدميون (نيهيلست) أن من الأخلاق التيفطر عليها النساء فكانت من قلوامهن
الأدبية أهن إذا سجن والرجال في الجوس أو نفين إلى سيريا يعشن أكثر من الرجال
ولا يئسن كالرجال على حين يموت الرجال أو يتحرون أو يجنون لا قليلاً أو يغضب
من وحدقم ومن بعدهم إلى الأبد عن عالم الأحياء.

ولعل أحدهم يقول أن أمثال هؤلاء النساء هن من النادرات يرزقن عاطفة الحب
والمفاداة والمقاومة وأنه قد بنشأ مثلهن وكم ترى في النساء من النابغات في الأدب
فجورج ساند وأليصابات بروفيك وجورج أليوت وبشير ستاف ومدام هومفري

وأرد كلهن من الأدبيات اللاتي يقل أمثالهن في الرجال على أن النساء والرجال أيضاً الذين اشتهروا بقواهم الأدبية وأفكارهم السياسية لا ينبغي إلا في مجتمع أو في دور يكون فيه مستوى المكارم والآداب راقياً جداً.

وقد أظهر البحث أن نصف النساء من الشجاعة على جانب عظيم إذا نمت فيهن هذه القوة أتت بالأعاجيب ولكن من ينظر إلى النساء نظراً مجرداً من التدقيق يراهن إلى الوناء والضعف والجبن والعلق بأهداب الأمور التافهة والألاعيب الصيانية.

والفرق عظيم بين القوة الأدبية في الرجل وبينها في المرأة فالرجل ينشأ على ذلك بالفطرة أو بالتربية ويبقى كذلك مهما شقت حياته أو سعدت بيد أن الرجال الأقوياء من حيث الطبيعة بل من حيث الأدب هم أندر مما تصورهم. والمرأة لا تعنى بقوتها الأدبية عندما تكون حياتها سعيدة أو عناية إلا أن الحاجة إذا مست وأصاها شقاء وبؤس ومرض في أسرقما ينقلب كيانها في الحال ويصبح المتوسطات والرخوات منهن قويات شديداً يقاومن المصاعب أي مقاومة ويطعن صدور العوائق بسلاح قد يكون غير ماضٍ ولكن له من نار الحمية الموقدة ما يشحذ غراره ولا يطفأ أوارده.

ولكم شهدنا النساء يأتين من ضروب الشجاعة حين الحاجة ما لم يخطر ببال فكم رأينا عقائل كان أزواجهن على جانب عظيم من سوء الأخلاق والعشرة معهن وكن صابرات على الأذى حتى إذا فقد بعولتهن ثروتهن وسيقوا إلى السجون والمطابق يعطفن عليهم ويأخذن في الإنفاق عليهم من كدهن وعملهن.

ورأيت امرأة أخرى كانت شرسة الطباع تناكد زوجها وتسيء عشرته فلما أضاع ماله راحت وهي في سن الأربعين تراجع دروسها التي تعلمتها وتقدمت لنيل شهادة الصلیم وأخذت منذ ذاك الحين تصرف على زوجها وأولادها من كسبها القليل وتعمل أعمال المطبخ والبيت بيدها وتشغل من الصبح إلى المساء وكانت من قبل لم تتزل

ليل يدها بالماء ولا لترفع ثيابها بنفسها أما زوجها فبقي سنين يعيش من كدح زوجته يلعن الزمان ويدخن الدخان ولا يفارق داره إلا للرهمة.

ورأيت امرأة أخرى كان زوجها أحد رجال الإدارة وكانت مرفهة تعيش عيش الأميرات فأصيب زوجها بالروماتيزم فأخذت تمرضه وتعنى به بنفسها ثماني عشرة سنة ليل نهار حتى أنها لم تترخ عنها لباسها خلال العشر سنين الأخيرة لتكون على مقربة من سرير زوجها وتقوم بخدمته حتى القيام بل إنها قضت بعض السنين الأخيرة ولم تخرج إلى الشوارع حتى صار منظر المركبات والقطارات في عينها غريباً. كلمتها ذات يوم وأنا أعجب بما فقالت لي أنها لم تسأم قط لأنها أدركت أنها تقوم بواجب وكانت كل ساعة من ساعاتها ولها ما يشغلها فيها وأنها لم تمرض منذ أخذت في تريض زوجها وكانت تغتبط عندما ترى زوجها يشكر لها بعينه عنايتها به قالت وكنيت سعيدة أن أتوفر على إطالة حياته فلما قضى نحبه لم يبق لي مطمع في الحياة وأسفت عليه كثيراً وإن أدركت أن آلامه انتهت بالموت.

وغريب أمر النساء في مفاداتهن بكل عزيز عليهن في سبل ما يوطدن النفس على القيام به فإذا انصرفت أذهابن إلى عمل من مثل ما تقدم يزهدن في الملاذ والبنين والبنات وينسين أن جهنم ظل زائل وأنهن يضعن حياتهن بنفاداتهن ولكن ما يلذهن هو أن يغنين فيما صرفن وكدهن له وليس الرجال كذلك ولعلهم يؤثرون الانصراف إلى عمل عام أكثر من الميل إلى عمل خاص.

أعرف أسرة غنية كان لها ابن كف بصره فأرادت أن تصحبه برفيق فاختارت له ابن بستانيها وجعلته له تربياً يغدوان ويروحان معاً فدرسوا الحقوق معاً وصرفا على هذه الحال منذ كان الأعمى ابن عشر سنين إلى أن صار ابن أربع وعشرين سنة ولما أتما دراسة الحقوق افتحا لهما مكتب محاماة وقضيا فيه سنتين ولكن ابن البستاني ضاق

ذرعه من تحمل صاحبه وانفصل عنه وإن كان طيب السريرة ولم ينس أيادي أسرته عليه قاتلاً أن السأم أصابه فلا يتحمل عشرة صاحبه.

كما أعرف رجلاً غنياً فقد زوجته وهي تضع له ابنة فلم تحدثه نفسه يوماً أن يعنى بتربية هذه مع أنه كان يحبها حباً جماً وما ذلك إلا لأن الرجل بما فيه من قوة أدبية يأتي من الأعمال ما يزيد بنتائج الاجتماعية أكثر مما تقوم به المرأة مع شخص. وعلى ذلك فالواجب على الرجال أن يشفقوا على النساء إذا رأوهن يعشن في الأحايين عيشاً طيباً المرأة لا تترع بما نفسها إلا أن تكون خادمة خاضعة تقوم بوظائفها اليومية المحدودة ولكنها حين الحاجة يكون شأنها أن تنقل فتكون ملكة وليس غير المصائب تحملها على تغيير كيانها فعلى الرجل أن يحترمها في حال بؤسها وسعادتها.

سر العلم والاجتماع

الحروب الإسلامية

قال أحمد زكي بك أستاذ الحضارة في الجامعة المصرية أن الحروب الإسلامية كانت استعمارية أكثر منها دينية: أن الحرب الشرعية هي التي تقام لإعلاء كلمة الله وليس المراد من إعلاء كلمة الله الدعوة إلى الإسلام بالسيف فإن هذا مما لا يكون أبداً وإنما المراد منها ما عرف في تاريخ صاحب الشريعة الإسلامية وبعض خلفائه وذلك أن الدين بني على الدعوة إليه بالحسنى ولكن زعماء المشركين وسائر الممالك وقتئذ كبر عليهم أن يدينوا لدين جاء به يتيم عربي ويسوي بين الملوك والسوقة ويسيع للخليفة الثاني أن يأمر مثل جيلة ابن الأيهم أن يرفع رأسه لجلف من أجلاف العرب ليثار لنفسه فيلطمه كما لطمه.

كبر عليهم الإذعان فقاوموا القائمين بنشره وشنوا عليهم الغارات يريدون صدمهم عن سبيل الله وإطفاء نوره ويأبى الله إلا أن يتم نوره فجاز للمسلمين وقتئذ بل وجب